إمبراطورية كوشان في الهند (٣٠ – ٣٧٥م)
وتجارتها مع الإمبراطورية الرومانية

م. د. ليث محمود زوين
جامعة الكوفة – كلية الآثار

م. د. حسين حسن العنزي
جامعة الكوفة – كلية الآثار

الملخص

لقد أحرز تقدم كبير في الحياة الاجتماعية والاقتصادية لشعوب آسيا الوسطى خلال فترة إمبراطورية كوشان فكان الرخاء الاقتصادي الذي تمتع به الكوشانيين يرجع إلى عدة عوامل منها توحيد أجزاء كبيرة من الأراضي الزراعية في شمال الهند وآسيا الوسطى تحت سلطة واحدة والتطور السريع للزراعة والحرف اليدوية، فضلاً عن تعزيز العلاقات التجارية مع الصين ودول الشرق الأدنى التي كانت تحت سيطرة الإمبراطورية الرومانية آنذاك. فقد ازدهرت التجارة الداخلية والخارجية التي عملت على تعزيز سيادة إمبراطورية كوشان في المنطقة. ربطت طرق التجارة الرئيسة عبر آسيا الوسطى بين الشرق والغرب، فكان لطريق الحرير من الصين إلى دول البحر المتوسط فرعاً يربط أراضي إمبراطورية كوشان مع دول غرب آسيا وقد أكتسب هذا الفرع أهمية كبرى بسبب السياسة الدولة آنذاك بين الإمبراطورية الرومانية والإمبراطورية الفرثية نقل من خلاله صادرات الهند الرئيسة مثل البهارات والعطور والأدوية والأخشاب والأحجار الكريمة وشبه الكريمة... الخ.

الكلمات المفتاحية: الهند القديمة، إمبراطورية كوشان، الإمبراطورية الرومانية، التجارة.

Kushan Empire in India (30 – 375 E.C)

and Trade with Roman Empire

Dr. Hussein H. Alanzi
University of Kufa- Faculty of Archaeology
Hussienh.alsubayee@uokufa.edu.iq

Dr. Laith M.Zwin
University of Kufa- Faculty of Archaeology
laithm.hammood@uokufa.edu.iq

Abstract

Significant progress has been made in the social and economic life of the peoples of Central Asia during the period of the Kushan Empire. The economic prosperity that enjoyed by the Kushans was due to several factors including the unification of large parts of agricultural land in northern India and Central Asia under one authority and the rapid development of agriculture and handicrafts, as well as strengthen trade relations with China and the Near East countries which was under the control of the then Roman Empire. Domestic and foreign trade flourished, which promoted the sovereignty of the Kushan empire in the region. The main trade routes across central Asia between West and East Asia were linked, The Silk Road from China to the Mediterranean there was a branch connecting the lands of the Kushan Empire with the West Asian countries. This branch gained great importance because of the state policy between the Roman Empire and the Parthian Empire, Through which the major exports of India such as spices, perfumes, medicines, wood, stones... etc.

Keywords: India, Kushan Empire, Rome Empire, Trade.

المقدمة

أن تاريخ إمبراطورية كوشان والمسألة العرقية لسكانها دائماً ما تكون موضع نقاش والتي ما زالت تبحث عن حل من قبل الباحثين المختصين في حضارات آسيا الوسطى والهند، فقد بدأت إمبراطورية كوشان في بداية القرن الأول الميلادي كاتحاد فدرالي من البدو الهندو–الأوروبيين الذين عاشوا في شرق آسيا الوسطى، وانتشرت سيطرتهم على معظم أراضي جنوب آسيا وعلى طول الطريق إلى أفغانستان الحديثة ومعظم أنحاء شبه القارة الهندية.

كسَبَ الوسطاء الكوشانيين ربحاً وافراً من الذهب الروماني والحرير الصيني جراء التجارة النشطة بينهما. ونظراً لاتصالاتهم مع الإمبراطوريات الكبرى فليس من المستغرب أن يطور شعب كوشان ثقافة ذات عناصر مهمة مستعارة من مصادر عدة، إذ مارسوا المعتقدات الديانتين البوذية والهلينية، فضلاً عن الديانة الهندوسية في ممارساتهم الدينية، وصوروا على عملاتهم آلهة من ثقافات مختلفة. كما ساهم أباطرة كوشان في نشر الديانة البوذية إلى أراضي شرق آسيا وجنوبها.

ربطَ سكان كوشان الثقافات والتجارة في بلدان آسيا الوسطى والصين والهند وفارس وفتحوا طريق الحرير الذي يُعد مساراً تجارياً مهماً للقوافل التي تحمل الحرير والبضائع البارزة الأخرى من الصين إلى الهند والشرق الأدنى. (أنظر الشكل رقم ٢)

أظهرت النقوش التي على العملات المعدنية لكوشان عن حكام الإمبراطورية ونفوذهم في أدارة الحكم وبالتالي يُعد ذلك بمثابة دعاية رسمية لعظمة الأباطرة والآلهة في الإمبراطورية.

وانطلاقاً من هذا المعنى وقع الاختيار على الدراسة الموسومة: "إمبراطورية كوشان في الهند (٣٠–٣٧٥م) وتجارتها مع الإمبراطورية الرومانية" التي تهدف إلى تقييم دور إمبراطورية كوشان في تنشيط الصلات التجارية مع الإمبراطورية الرومانية، فضلاً عن توحيد الثقافات المختلفة ولاسيما ربط الحضارات الصينية والهندية، وليس حل مشاكل التاريخ السياسي. فمن المتفق عليه أن دولة كوشان وجدت في الحقبة الممتدة من القرن الأول وحتى القرن الثالث الميلاديين في منطقة واسعة تمتد من الجزء الغربي لآسيا الوسطى وأفغانستان إلى شمال الهند مع امتداد مجال سيطرتها الرئيسة من قندهار إلى ماثورا.

نشأت إمبراطورية كوشان

امتدت إمبراطورية كوشان بين القرنين الأول والثالث الميلاديين في منطقة شمالي الهند وآسيا الوسطى، وقد ضمت مجموعات عرقية وثقافية مختلفة من أنماط ومستويات معيشية مختلفة من الإنتاج[١]. سَهلَ هذا التوحد الغير العادي النقل التجاري والثقافي والإيديولوجي عبر منطقة واسعة امتدت من شرق آسيا إلى حدود أوروبا. ونتيجةٍ لذلك حقق شعب كوشان مستوى عالٍ من الإنجاز في الزراعة والتجارة وصناعة الحرف اليدوية[٢].

ناقش المؤرخون الكثير من القضايا الأساسية المتعلقة بهذه الإمبراطورية، خاصةٍ التسلسل الزمني والخلفية العرقية لشعبها وامتداد أراضيها، وتتعلق المشكلة التأريخية بتاريخ عهد كانيشكا الإمبراطور الأكثر شهرة في كوشان، إذ يوفر حكم كانيشكا معلومة مفيدة لتأكيد التغيرات الزمنية في أرض كوشان والعلاقات الدولية مع الممالك الأخرى ولاسيما مملكة ساترابا الغربية (٣٥ – ٤٠٥ م)[٣] (Western Satrapa) في غربي الهند.

أختلف العلماء في المؤتمر الأول المنعقد في مدينة لندن عام ١٩١٣م والمتعلق بتحديد تاريخ عهد الإمبراطورية كانيشكا بين عام ٥٨ ق.م وعام ٧٨م كأول عام لحكمه[٤]. وفي المؤتمر الثاني الذي عُقد في مدينة لندن أيضاً عام ١٩٦٠م والذي حضره علماء التاريخ والآثار من أوروبا وجنوب آسيا والولايات المتحدة انقسمت فيه الآراء بين عام ٧٨م ، في حين رأى آخرون في الخمسين سنة اللاحقة هي بداية حكم الإمبراطورية كانيشكا[٥]. فذكر العالم البريطاني آرثر ليولين باشام "ما لم تظهر بعض الأدلة الجديدة المذهلة لم تكن هناك صورة واضحة بشكل نهائي، فربما تظهر في النهاية في آسيا الوسطى أو أفغانستان أو باكستان أو الهند". بالإضافة إلى ذلك عقد مؤتمر دولي آخر في مدينة دوشانبي في الإتحاد السوفيتي عام ١٩٦٨م حول مشكلة تاريخ وآثار وثقافة آسيا الوسطى خلال حكم إمبراطورية كوشان، وبالرغم من كثرة النقاشات ألا أنه لم يتوصل العلماء إلى نتيجة مرضية للجميع[٦].

كذلك لم يتم الاتفاق بين العلماء حول الأقوام التي أنشئت إمبراطورية كوشان، ألا أنها من المرجح قد تم أنشاؤها من قبل قبائل (يويه تشي)، الذين طُردوا حوالي ٣٠ ميلادي من قبل البدو الرحل غرباً من أرض تركستان الصينية[٧]، واستقروا على الأراضي الحدودية أفغانستان، باكستان، طاجيكستان وأوزبكستان، وبعد مهاجمة الإمبراطورية الفرثية وتوحيد هذه الأراضي في إمبراطورية مستقلة في المنطقة عُرفت باسم كوشان[٨]. وأستناداً إلى الأدلة اللغوية والأدبية يعتقد بعض العلماء أن الخلفية العرقية لقبائل اليويه تشي هي تركية[٩]، في حين يقول آخرون أنها إيرانية، فقد كانوا يتكلمون لغة الهندو – أوروبية. وفي الآونة الأخيرة أتفق العلماء الغربيين على

أن قبائل يويه تشي كانوا من الشعوب السكيثية Sakas[١٠]، بينما أطلقت عليهم النصوص الهندية القديمة المهابهارتا (Mlechchas) أي البرابرة[١١] كونهم شعوب غريبة استوطنوا أرض شمال غرب الهند[١٢].

أما بالنسبة لأرض كوشان وامتدادها، يذكر المؤرخ الأمريكي شوارتزبرغ في كتابه (A Historical Atlas of South Asia) الذي صدر عام ١٩٧٨م " أن فترة حكم إمبراطورية كوشان مثال قلق بشكل خاص للمشاكل في رسم خرائط الدول القديمة"[١٣]. ورغم ذلك يستمر العلماء في مناقشة مدى قوة إمبراطورية كوشان السياسية بأستعمال النقوش والقطع النقدية والمصادر الأدبية المختلفة. إذ من الصعب تحديد الطرق التي اعتمدها حكام كوشان للسيطرة على مثل هذه المنطقة الواسعة والمتنوعة[١٤].

أسفرت النقوش المكتشفة في بعض مدن الإمبراطورية عن ألقاب مجهولة المعلومات مثل كشاترابا (Kshatrapa) ومهاكشاترابا (Mahakshatrapa). استعملت هذه الألقاب من قبل شعب ساكاس (Sakas)، فربما عُينت هذه العناوين لحكام المقاطعات الذين كانوا تحت حكم إمبراطورية كوشان[١٥]. ومن الألقاب الأخرى داندانا ياكا (Dandanayaka) ومهادانداناياكا (Mahadandanayaka) اللذان ربما أسند إليهما مهام عسكرية أو قضائية. في حين حدَدَ بعض الباحثين بأنها كانت ألقاب رؤوساء القبائل، كما أقترح الباحث الهندي أ.ك. نارين (A.K.Narain) عام ١٩٨١م بأن حاملي ألقاب كشاترابا وداندانا ياكا كانوا ذا مسؤولية في أثنين من المراتب الموازية للإدارة المدنية والعسكرية في الإمبراطورية[١٦].

يُشير أفتقار المعلومات المتعلقة بإدارة إمبراطورية كوشان إلى أن آلية الدولة الخاصة بها لم تكن مركزية كما هو الحال في إمبراطورية موريان[١٧] (٣٢٠-١٨٤ق.م)[١٨]. مع ذلك فأن شعب كوشان قد ورث أرثاً هاماً من شعب موريان هو السيطرة على وإدارة الطرق التجارية التي أنشئت لأغراض تجارية وإدارية شمال الهند، فقد أستمر أستعمال الطرق التجارية من منطقة تاكسيلا (Taxila) شمال غرب باكستان إلى منطقة باتاليبوترا الواقعة في شمال شرق الهند خلال فترة ما بعد موريان وشكلت جزء من الشرايين التجارية في إمبراطورية كوشان، مما أدى إلى ازدهار المدن على طول طرق التجارة هذه[١٩].

تشهد البقايا المعمارية والودائع المعدنية في مدن الإمبراطورية على حياة حضرية مزدهرة فضلاً عن روابط ثقافية وتجارية مع مناطق خارجية تمتد من البحر المتوسط إلى الصين. كما تتمثل جمع إيرادات الأراضي المهمة الإدارية الرئيسة لحكام كوشان في السيطرة على الطرق

والأنشطة التجارية، فتوفر الكثير من العملات الفضية والذهبية أدلة راسخة على المساعي التجارية لحكام الإمبراطورية[٢٠].

لا يوجد دليل مباشر يتعلق بنظام العائدات لإمبراطورية كوشان، ويبدو إن سيطرتها على الاقتصاد الحضري قد أعتمد على الحرف اليدوية والنقابات التجارية[٢١]. فقد ظهرت النقابات (Sreni) في الأدب الهندي خلال وقت غوتاما بوذا (٥٦٣ – ٤٨٣ ق.م)، لكن المعلومات حول وظيفتها في تلك الحقبة لا تزال غامضة. وظهرت خلال القرون الميلادية المبكرة الكثير من النقابات وأشير أليها في النقوش النذرية بأنها راعية للديانتين البوذية والجانية، إذ ذُكرت أكثر من ستين وظيفة في النصوص البوذية (Milindapanha و Mahavastu)[٢٢]. تُبين هذه النصوص جوانب مهمة من أصناف وعادات المجتمع خلال حكم كوشان مثل أستدعاء الملك والكهنة ورجال الدين مع القيادات العسكرية، ومجتمع التجار مع قائد القافلة، وجميع النقابات الثمانية عشر في الاحتفالات الهامة مثل الزواج الملكي[٢٣].

يشهد الأدب الهندي وخاصةً الكتب القانونية على النفوذ السياسي والاقتصادي للنقابة في إمبراطورية كوشان، إذ يذكر كتاب مانوسمرتي[٢٤] أن الإمبراطور يجب أن يحمي النقابات من خلال معاقبة أولئك الذين يخالفون مبادئها. فقد كانت النقابات تمثل مؤسسات اجتماعية مهمة يتعامل معها الملوك[٢٥].

وقد عُد الدين المؤسسة المهمة في تنظيم الحياة الاجتماعية الذي أسهب في تطور مدرسة مهايانا (Mahayana) البوذية في القرون الميلادية المبكرة عن عدد من أتباع البوذية[٢٦]. فدعمت التجارة والنقابات الأديرة مالياً مما أدى إلى خلق ثقافة حضرية في مجتمع من التجار والحرفيين وتبلورت الأديرة البوذية في ازدهار الفن والعمارة البوذية خلال حكم كوشان. وبدورها شكلت الأديرة والنقابات أهم مؤسسات مدن كوشان[٢٧].

العملات المعدنية والنظام النقدي

تؤكد مجموعة النميات من هذه المرحلة على الطابع الثقافي لإمبراطورية كوشان، فقد سكَ الحاكم كوجولا كادفيسيس (Kujula Kadphises) (٣٠–٨٠ م) صورة لبوذا على عملاته المعدنية[٢٨]. في حين فضلَ أبنه الإمبراطور ويما كادفيسيس (Wima Kadphises) (٩٠–١٠٠م) صورة الإله الهندوسي شيفا مع الثور المقدس ناندي بدلاً من بوذا (أنظر الشكل رقم ٣). ألا أن كلاهما أستعمل أساطير ثنائية اللغة في الإغريقية والبراكريتية[٢٩][٣٠]. وعلى الرغم من أن الإمبراطور كانيشكا لم يستعمل سوى النص الإغريقي ألا أن عملاته احتوت على نقوش لآلهة من أديان وثقافات مختلفة مثل شفا، بوذا، وآلهة فارسية مثل أهورا مزدا وميثرا وأله النار الزرادشتي

آثار والآلهة السومرية أينانا[٣١] (أنظر الشكل رقم ٤، ٥). وأتبع أبنه الإمبراطور هوفيشكا (Huvishka) نفس الممارسة، لكن وريثه الإمبراطور فاسوديفا (Vasudeva) حدد الآلهة التي صُبت على عملاته المعدنية إلى الإله شيفا[٣٢]. فيبدو أن تمثيلات الآلهة على عملات كوشان تعكس تنوع المعتقدات الدينية في جميع أنحاء الأراضي الشاسعة لإمبراطورية كوشان.

معظم عملات كوشان المبكرة كانت من البرونز والتي تزن نحو ١٧ أو ١٦ جرام. وفي وقت لاحق تم سك العملات المعدنية النحاسية، فقد تم العثور عليها في أغلب مدن كوشان وكذلك في المستوطنات الريفية الصغيرة والتي تدل على أن سكان الريف كذلك شاركوا سكان المدن في تبادل السلع اليومية التي تنطوي على المال[٣٣].

انتشرت عملات كوشان الذهبية والفضية والنحاسية ذات أساطير وزخارف المختلفة خارج وداخل أرض الإمبراطورية فوجدت هذه العملات المعدنية ليس فقط في جنوب طاجيكستان وجنوب أوزبكستان فحسب بل كذلك في الأراضي التي على طول نهر جيحون وحتى منطقة خوارزم الواقعة شمال غربي أفغانستان[٣٤] (أنظر الشكل رقم ١)، فضلاً عن أنها جسّدت سلطة الدولة على التنمية الاقتصادية، فضلاً عن أنها تؤدي وسيلتها المعتادة وهي التبادل. يوحي هذا النوع من الزخارف والأساطير بأن حكام إمبراطورية كوشان قد تبنوا موقفاً ليبرالياً تجاه الأديان من أجل تسهيل التبادل التجاري في بلدهم المتنوع ثقافياً والتجارة مع الدول الأخرى.

يبدو أن العملات المعدنية لأباطرة كوشان (كوجولا كادفيسيس و ويما كادفيسيس) قد تم تداولها في المناطق التي تُهيمن عليها الديانة البوذية أو البراهمية فقط. ومع توسع أرض كوشان ونفوذها تُشير القطع النقدية التي في زمن الإمبراطور كانيشكا إلى أن التجارة امتدت إلى مناطق ذات ثقافات مختلفة[٣٥]. وتدل الزخارف والأساطير المنقوشة على العملات المعدنية في زمن كانيشكا ليس فقط على التسامح الديني للإمبراطور ولكن إلى التداول الواسع في عملاته المعدنية أيضاً[٣٦]. في حين يُمثل الانخفاض في تنوع العملات المعدنية بعد الإمبراطور هوفيشكا الانكماش في التداول وتدهور جودة العملات في آنٍ واحد[٣٧].

على الرغم من أنفتاح حكومة كوشان نحو تصوير زخارف دينية مختلفة على عملاتها المعدنية إلا أن الآثار البوذية ضلت تُهيمن على المراكز الحضرية فضلاً عن هيمنة الأدب السنسكريتي البوذي على الأعمال الأدبية في تلك الفترة[٣٨].

لم يُحبذ التقليد البراهمي الحياة الحضرية حتى عندما بدأت المدن بالازدهار في وادي الجانج خلال منتصف الإلف الأول قبل الميلاد، وفي بداية القرون الميلادية أبدى مؤلفوا أعمال الدراما البراهمية المزيد من التسامح، ومع ذلك أستمر قانون مانوسمرتي بنصح الحاكم لتنظيم

الحياة الحضرية عن طريق حضر العناصر السيئة مثل الرجال الذين يعيشون من خلال أظهار كفاءتهم في الفنون، العاهرات، وأولئك غير الآريين الذين يخفون أنفسهم كآريين[٣٩].

التجارة بين الكوشانيين والرومانيين

أزدهرت التجارة الداخلية والخارجية في حكم كوشان والتي نتج عنها تقوية الروابط الأقتصادية وتوطيد سيادة إمبراطورية كوشان وتوسيع الزراعة ونمو الإنتاج اليدوي. زادت التجارة بين مقاطعات آسيا الوسطى بشكل كبير وشملت منتجات الحرف اليدوية، الزراعة، السلع الأستهلاكية والمواد الفاخرة، حتى أقام سكان المناطق الزراعية في آسيا الوسطى تجارة نشطة مع سكان مناطق السهول البدوية[٤٠].

كما توسعت التجارة الخارجية بشكل كبير في هذه المرحلة إذ رُبطت الطرق التجارية التي تمر عبر آسيا الوسطى من وإلى الهند والصين والشرق الأدنى[٤١] (أنظر الشكل رقم ٦). والتي ساهمت بأجراء تجارة برية نشطة مع الهند وأن الطريق الأكثر ملائم كان يمر من خلال مناطق تاكسيلا وبيشاور (عاصمة كوشان)[٤٢]. فضلاً عن ذلك كان لطريق الحرير من الصين إلى دول الشرق الأدنى ومن ثم الإمبراطورية الرومانية فرع يمر عبر أراضي كوشان تم فتحه وقد أكتسب هذا الفرع أهمية أكبر عندما ربط إمبراطورية كوشان مع بلدان الشرق الأدنى بصلات تجارية نشطة[٤٣].

شهدت كلتا المنطقتين آسيا الوسطى وشمال الهند أزدهاراً حضرياً في ظل إمبراطورية كوشان، إذ تُبين الحفريات التي أجراها العلماء السوفيت في الكثير من المواقع بأن المدن لم تزدهر فقط على المجرى العلوي من نهر جيحون مثل مدينتي ترمذ وسمرقند، بل كذلك في المجرى السفلي من النهر. كما اتسعت وأزدهرت الكثير من المدن القديمة في شمال ووسط الهند[٤٤].

تدل المكتشفات الأثرية مثل الأواني الزجاجية، الملابس، عمارة المدن، المراحيض، والكثير من جوانب الحياة الاجتماعية والاقتصادية على حياة حضرية متقدمة في إمبراطورية كوشان، فتؤكد المصادر الأدبية خلال هذه الفترة على هذا التطور من خلال الإشارة إلى أنواع محددة من المنسوجات والأحجار الكريمة والعاج ومواد المراحيض، إذ أن هذه الحياة النمطية تتطلب تجارة نشطة للسلع الكمالية، فقد قدمت بدورها الأنشطة التجارية زخماً إضافيا للتحضر[٤٥]. وبالتأكيد حفزت دولة كوشان التجارة الداخلية في شمال الهند من منطقة تاكسيلا إلى منطقة بناراس، وفي غضون ذلك كان تعامل كوشان مع الإمبراطورية الرومانية أكثر حيوية لخزانة الدولة بالمقارنة مع السلالات الهندية السابقة[٤٦].

كانت التجارة بين العالم الروماني وجنوب آسيا تتم منذ قرون ما قبل الميلاد ولاسيما بواسطة الوسطاء العرب[٤٧]. فقد بدأت التجارة المنظمة والمباشرة منذ عهد الإمبراطور الروماني أغسطس (٢٧ ق.م – ١٥ م) عندما اكتشف البحار اليوناني هبالوس (Hippalus) الرياح الموسمية في بحر العرب في القرن الأول الميلادي[٤٨]. وغير معروف ما أذا كان هبالوس اكتشف الرياح الموسمية أو علم بها من قبل العرب. مع ذلك فأن إعلان بداية القرن الأول الميلادي هو تاريخ دقيق بما يكفي لربط التجارة الرومانية المتزايدة بالتنمية الحضرية في شمال ووسط الهند.

عبرت السفن المصرية – اليونانية بحر العرب بعد معرفتها عن حركة الرياح الموسمية، ثم وصلت إلى الموانئ البحرية التي على طول سواحل الهند الغربية من مصب نهر الإندوس إلى ساحل مالابار في جنوب غربي الهند[٤٩]. فقد أرتبط ميناء باربارکون (Parbaricon) الواقع على مصب نهر الإندوس مع البنجاب وقندهار عبر الطريق على طول نهر الإندوس، كما رَبطَ ميناء بهروش (أهم ميناء تجاري للتجارة الرومانية) الواقع في منطقة كجرات عبر منطقة اوجاين (الواقعة في ولاية اماديا براديش) مع منطقة ماثورا (الواقعة في ولاية اوتار براديش)، إذ كان يسيطر على التجارة في سهل الجانج وشمال غرب الهند[٥٠]. في حين رُبطت هضبة الدكن في جنوب الهند عبر الطرق القديمة التي تمر عبر ميناء سوبارا (Sopara) وميناء كاليانا (Kaliyana) اللذان يقعان على طول الساحل الغربي للهند واللذان بدورهما يؤديان إلى مناطق جنوب شرقي الهند. وغالباً ما غادرت السفن الرومانية الموانئ الغربية متجهةٍ إلى جنوب شرق آسيا[٥١].

جلبَ التجار الرومان إلى موانئ شمال الهند باربارِيكون وبهروش العملات المعدنية الذهبية والفضية لشراء السلع الهندية، الأواني الفضية، الشعب المرجانية، كما جلبوا من سواحل الخليج العربي والبحر الأحمر الخيول ، الفخار، النبيذ، الزبرجد، التمور، حجر الأثمد، حجر الرهج الأحمر واللبان[٥٢]. ومن بين أبرز الصادرات الرومانية من الهند إلى الإمبراطورية الرومانية كان البرسيم الحلو، التوابل، الأحجار الكريمة وشبه الكريمة، العاج ، الحيوانات والعبيد ومنتجات أخرى كانت منتشرة في الهند[٥٣]. وقد أرسلت جميع البضائع التي نُقلت عبر نهر الإندوس من ميناء باربارِيكون إلى الإمبراطور أو الملوك التابعين له، وأهمها إطباق فضية باهظة الثمن والموسيقين الرقيق والفتيات الجميلات فضلاً عن القماش والعطور إلى الإمبراطور[٥٤]. بالمقابل وصلت سلع أخرى إلى الأسواق الهندية في ميناء بهروش إذ استُبدلت العملات الذهبية والفضية الرومانية بربح للعملة المحلية[٥٥]. كما ذهبت بعض السلع التي جلبها التجار الرومان إلى شمال غرب الصين، فالمرجان والزجاج والعاج وخشب الأبنوس كانت سلع أجنبية في الصين

ذات قيمة عالية خلال القرون الميلادية المبكرة، بالإضافة إلى ذلك كُشف عن أثنين من العطور هما اللبان والبخور التي ربما وصلت إلى الصين عبر آسيا الوسطى في القرنين الثاني والثالث الميلاديين(٥٦).

نقلَ التجار الرومان من موانئ باربايكون وبهروش منتجات شمال وغرب الهند الأصلية مثل النيلي، العاج، القماش، أحجار الجذع والفلفل الطويل فضلاً عن منتجات أخرى جاءت من الأراضي العليا مثل نبات اللساس (السنبل الهندي) من جبال الحملايا، ونبات القسط من كشمير، وحجر الفيروز من جبال الهندوكوش، وحجر اللازورد من بدخشان(٥٧). كذلك شُحن من هذين الميناءين الواردات الهندية من آسيا الوسطى والصين مثل الجلود الحيوانات الصينية التي وصفها المؤرخ بليني بأنها جلود الحيوانات الأغلى، فضلاً عن غزل الحرير والقماش الحريري(٥٨).

بالإضافة إلى ذلك هناك أدلة على سفر تجار كوشان إلى حدود الإمبراطورية الرومانية وخاصةٍ إلى مدينة الأسكندرية في مصر والتي تُعد أحد المراكز التجارية المهمة في العالم القديم(٥٩). فضلاً عن وجود التجار الرومان في آسيا الوسطى حيث كُشف عن عدد من المنتجات والسيوف الرومانية والتي تدل على وجود صلات تجارية بين الإمبراطورية الرومانية وإمبراطورية كوشان(٦٠).

مع ذلك فأن الحركة الكثيفة التي على طول الساحل الغربي والطرق التجارية إلى شمال غربي شبه القارة الهندية لم تترك الكثير من الأدلة المادية حول التجارة الرومانية، فقد أكتُشف القليل من العملات المعدنية الرومانية في شمال غربي شبه القارة الهندية(٦١)، في حين تم العثور على الكثير من هذه العملات المعدنية والأوعية الرومانية في المناطق الجنوبية القريبة من الموانئ(٦٢). وقد حيرت هذه الظاهرة الكثير من العلماء، مما دفع العالم البريطاني السير مورتيمر ويلر إلى الأقتراح بأن التجارة الرومانية مع الجنوب كانت محطة وبالتالي تم إيداع الكثير من السلع هناك، لأن التجارة مع الشمال أرتبطت بمنطقة أكبر وأدلة قليلة من السلع تمر عبر هذه المنطقة التي وجهتها إلى الشمال فلا يزال هناك القليل من الأدلة على التجارة(٦٣). يدعم ويلر هذه الفرضية بأدلة من مدينة باكرام الواقعة في شمال شرق أفغانستان والتي تُعد المدينة الملكية الصيفية لإمبراطور كوشان كادفيسيس (Kadphises)، والتي أسفرت عن مجموعة من الأواني الفريدة من البحر المتوسط والهند والصين. ويُشير ويلر إلى إن هذه المجموعة من المكتشفات تمثل خزينة ملكية تراكمت لأكثر من ١٥٠ عام، وقد تم جمعها كشكل من أشكال الخسائر من التجار الذين كانوا يمرون عبر المنطقة(٦٤).

لذلك تُعد فرضية ويلر أمراً معقولاً لكنها غير قاطعة الحجة، في حين أن العملات الذهبية والفضية الرومانية أصبحت عمله ذات قيمة عالية في غرب وجنوب شبه القارة الهندية وبالتالي بقيت كمصنوعات يدوية أثرية[٦٥].

بينما اقترح عالم النميات الهندي ب.د. تشاتوباديايا (B.D.Chattopadhyaya) بأن ما ذكر في نقش ناسك[٦٦] (Nasik) في فترة حكم الملك ناهابانا (١١٩- ١٢٤م) حاكم مملكة ساترابا الغربية (٣٥ – ٤٠٥م) يُشير إلى العملات الذهبية الرومانية ويعطي النقش القيمة النسبية لهذه العملات مقابل العملات الفضية المحلية، كما يذكر تشاتوباديايا بأن العملات الرومانية التي استوردت عبر ميناء بهروش كانت تستعمل كأحتياطي للعملة المحلية وودائع رأسمالية[٦٧]، لأن أراضي جنوب الهند وغربها كانت تحت حكم مملكة ستفهانا[٦٨] (٢٢١ ق.م – ٢١٨ م) ولم يكن لديهم عملة ذهبية محلية[٦٩].

بمجرد دخول العملات الرومانية مجال النظام النقدي في شمال شبه القارة الهندية وصل معيار العملات إلى توحد لم يسبق له مثيل خلال حكم كوشان، وعلى الأرجح صهر حكام كوشان العملة الأجنبية لعمل عملاتهم الخاصة بهم. في حين لم يكن في الجنوب عملة ذهبية، والعملات الفضية كانت نادرة، فقد جاءت العملات الروماني لتكملة العملة المحلية[٧٠].

هناك أدلة أثرية أخرى مهمة تؤكد وجود علاقة بين تجارة آسيا الوسطى والأزدهار الحضري في شمال غربي الهند. فقد غطى موقع سركب الواقع في البنجاب مرحلة قصيرة من حكم كوشان[٧١] لكن عمليات التنقيب التي قام بها السير جون مارشال كشفت عن بعض العناصر اليونانية والرومانية وعن تطور حضري سريع في القرن الذي سبق إمبراطورية كوشان[٧٢]. كما قال المؤرخ الهندي ب.ن. موخرجي لقد حفزت تجارة آسيا الوسطى المربحة حاكم كوشان ويما كادفيسيس على غزو هذه المنطقة وإثراء دولة كوشان[٧٣].

ثم أن النزاعات خلال حكم دولة كوشان بين إمبراطورية روما والإمبراطورية الفرثية بشكل خاص في عهد الإمبراطور الروماني تراجان (٩٨-١١٧ م) قد جعلت الطريق عبر السواحل الغربية ونهر الإندوس ضرورية للتجارة الرومانية إلى وسط وشرق آسيا[٧٤]. كذلك سك الملوك الهنود خلال حكم كوشان العملات الذهبية لأول مرة وفقاً للوزن القياسي للعملة الذهبية الرومانية الذي كان نحو ٨ جرام، فربما تم ذلك من أجل وضع معيار الذهب للأستخدام في تجارة آسيا الوسطى[٧٥].

مع ذلك فأن الصعوبات الناجمة من عدم التيقن من السجل التاريخي وأمتداد نفوذ إمبراطورية كوشان تشوش على هذه الصورة المتناغمة لطرق التجارة الواسعة. فإذا كان

الإمبراطور كانيشكا معاصراً لحاكم مملكة ساترابا الغربية الملك رودرادامان (Rudradaman) الذي أحتل منطقة كجرات والمناطق المجاورة لها في القرنين الأول الميلادي وقام بتجارة داخلية مزدهرة، فمن الممكن أنه كان مسيطراً على الموانئ البحرية وبذلك تكون مملكة ساترابا الغربية تابعة لأباطرة كوشان[٧٦].

إذا كان الأمر كذلك فأن التجارة بين الساحل الغربي وشمال غرب الهند كانت تسير دون عوائق. حيث أن الصادرات الهندية من موانئ باريكون وبهروش كانت في الغالب منتجات تأتي من الأراضي المرتفعة التي كلها كانت تحت سيطرة إمبراطورية كوشان، إذ كلتا المنتجات النباتية والمعادن كانت من جبال الحملايا وكشمير والتي هي أراض كوشان الأساسية، كذلك جميع الواردات الهندية من آسيا الوسطى والصين مثل جلود الحيوانات ومنتجات الحرير كانت تحت سيطرة كوشان. وطالما تسيطر إمبراطورية كوشان على الموارد الغنية التي يتطلع إليها التجار الرومان بشغف بإمكان سكان كوشان الحصول بسهولة على السلع التي جلبتها السفن الرومانية، فضلاً عن ذلك بإمكانهم الاستفادة من التجارة التي تمر عبر أراضيهم حتى لو لم تكن لديهم سيطرة سياسية مباشرة على الموانئ البحرية.

الاستنتاجات

١- أحرز خلال حكم كوشان تقدم كبير في المجال الاجتماعي والاقتصادي لحياة شعوب آسيا الوسطى من خلال توحيد الجزء الأكبر من منطقة واسعة ومتنوعة تحت سيطرة سلطة إمبراطورية واحدة، وتوسيع وتعزيز العلاقات التجارية في آسيا الوسطى

٢- أدت سياسات حكام الإمبراطورية إلى التجاوب بين البلدان التي وقعت تحت سيطرتها في مجال الفكر والدين والثقافة والفنون. الأمر الذي يدل على التسامح مع جميع الأديان من ناحية، وأتساع الإمبراطورية من ناحية أخرى.

٣- ساهم حكام الإمبراطورية في نشر وتطوير الديانة البوذية من خلال ارسال المبشرين بالبوذية لمناطق مختلفة من الإمبراطورية ودعم الأديرة مالياً والتي بدورها ساهمت في ازدهار الفن والعمارة البوذية.

٤- تشير الزخارف والأساطير المنقوشة على العملات المعدنية لحكام كوشان على التسامح الديني في الإمبراطورية.

٥- توسعت التجارة الخارجية بشكل كبير في هذه المرحلة، إذ رُبطت الطرق التجارية التي تمر عبر آسيا الوسطى من وإلى الهند والصين والشرق الأدنى. فقد ساهموا في فتح طريق الحرير الذي يمر عبر أراضي كوشان والذي أكتسب أهمية كبيرة في ربط إمبراطورية كوشان مع بلدان الشرق الأدنى.

٦- أدت الحروب بين الإمبراطورية الرومانية والإمبراطورية الفرثية إلى قطع الطريق التجاري البري بين حضارات آسيا القديمة والإمبراطورية الرومانية . مما دفع التجار الرومان إلى التوجه بحراً بعد اكتشاف الرياح الموسمية من قبل البحار اليوناني هبالوس. مما ساهم في استيراد وتصدير الكثير من المواد التجارية.

الأشكال

شكل رقم (١) حدود إمبراطورية كوشان

K. C. Chaudhuri, History of Ancient India…,P 218.

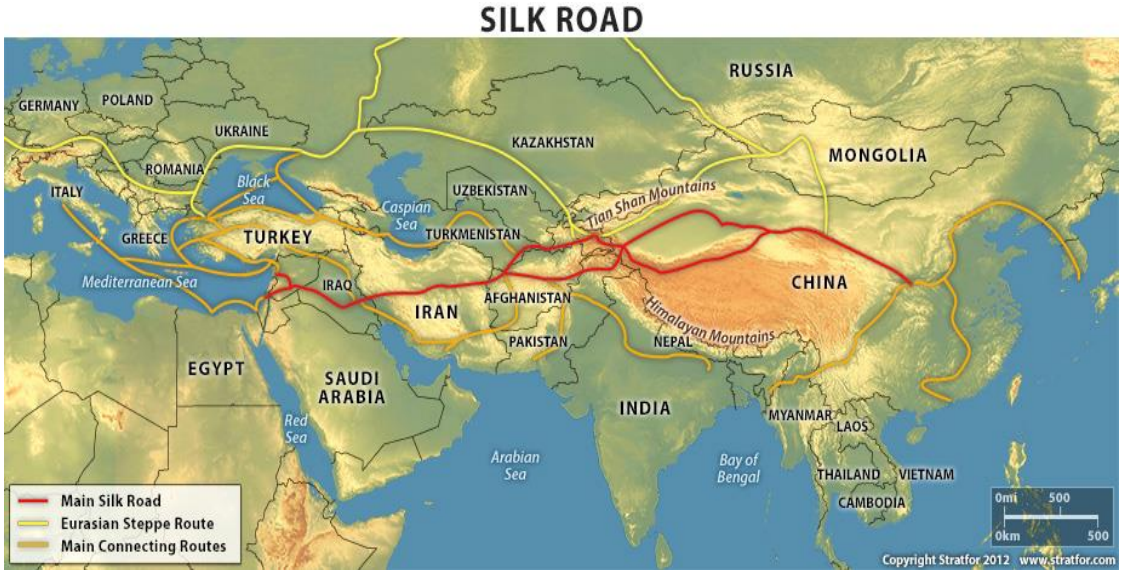

شكل رقم (٢) طريق الحرير الرابط بين الصين وبلدان الشرق الأدنى

K. C. Chaudhuri, History of Ancient India…,P 237.

الشكل رقم (٣) عملات معدنية من عصر الإمبراطور ويما كادفيسيس والإله شيفا
www.numisbids.com

شكل رقم (٤) عملات معدنية صور عليها الآلهة الرافدينية إينانا (عشتار)
www.mintageworld.com

الشكل رقم (٥) عملات معدنية نُقش عليها صورة الحاكم كانيشكا وبوذا
V.D.Mahajan, Ancient India ...,P 438.

شكل رقم (٦) طرق التجارة البحرية بين إمبراطورية كوشان والعالم الخارجي
V.D.Mahajan, Ancient India ...,P 442.

هوامش البحث:

ملاحظة: سأذكر هنا معلومات كاملة عن المصادر والمراجع عند ذكرها لأول مرة مما يغنينا عن اعداد جريدة للمصادر والمراجع.

(١) ول ديورانت، قصة الحضارة الهند وجيرانها الشرق الأقصى الصين، ت: الدكتور زكي نجيب محمود، الجزء الثالث، المجلد الأول، جامعة الدول العربية، ١٩٦٨، ص ١٠٨.

(2) B.V.Rao, History of Asia from early time to A.D.2000, Delhi, 2001, P 283.

(٣) ساترابا الغربية: مملكة أسسها الحكام السكيثيين، حكمت غرب ووسط الهند، كانت معاصرة مع إمبراطورية الكوشان الذين حكموا الجزء الشمالي من الهند، وسلالة ستفهانا التي حكمت جنوب ووسط الهند، سرعان ما سقطت بسبب الصراعات مع هذه السلالات للمزيد راجع:

Kankaj Tandon, The Western Kashatrapa Damazada, Delhi, 1998, P 173.

(4) K.C.Chaudhuri, History of Ancient India, Calcutta, 1982, P 223.

(5) Hermann Kulke and Dietmar Rothermund, A history of India, London, 2016, P 126.

(٦) للمزيد أنظر:

Arthur Liewellyn Basham, Papers on the Date of Kanishka, submitted to the conference on the date of Kanishka, London, 1968.

(٧) حسين حسن العنزي وحميد مصطفى ناجي، إمبراطورية كويتا Gupta التاريخ السياسي والإداري (٣٢٠ – ٥٠٠ ميلادي)، مجلة كلية التربية الأساسية للعلوم التربوية والإنسانية، جامعة بابل، العدد ٣٩، حزيران ٢٠١٨، ص ١٢٤٩.

(8) B.V.Rao, History of Asia from early time …, P 283.

(٩) ول ديورانت، قصة الحضارة الهند وجيرانها ...، ص ١٠٨.

(١٠) السكيثيين: مجموعة من قبائل آسيا الوسطى من أصول إيرانية فقد استخدموا اللغات الشرقية الإيرانية ، أنشئوا أول إمبراطورية بدوية في آسيا الوسطى. ونتيجة مهاجمة قبائل يويه تشي ومجموعات أخرى السكيثيين في القرن الثاني قبل الميلاد دفع الكثير منهم إلى الهجرة إلى جنوب آسيا، إذ أصبحوا يعرفون باسم هندو – سيكثيان. للتفاصيل انظر:

William W. Hunter, The History of Nations, Vol:5, California, 1906, P.72-73.

(١١) حسين حسن العنزي، السمات والتأثيرات والخصائص في حضارتي وادي الرافدين ووادي السند ٣٠٠٠ – ١٥٠٠ ق.م، أطروحة دكتوراه غير منشورة، جامعة واسط، كلية التربية، قسم التاريخ، ٢٠١٧، ص ١٠.

(١٢) ول ديورانت، قصة الحضارة الهند وجيرانها ...، ص ١٠٨.

(13) Xinru Liu, Ancient India and Ancient China Trade and Religious Exchanges 1–600 A.D, Oxford,1988, P 3.

(14) Arthur Liewellyn Basham, Papers on the Date of Kanishka…, P xiii.

(١٥)حسين حسن العنزي وحميد مصطفى ناجي، إمبراطورية كويتا Gupta...، ص ١٢٤٨.

(16) V.D.Mahajan, Ancient India, Delhi, 2008, P 442.

(١٧) إمبراطورية موريان : إمبراطورية واسعة حكمت شبه القارة الهندية، نشأت من مملكة مغادها، وعاصمتها بتاليبوترا، امتدت إلى الشمال على طول الحدود مع جبال الحملايا، ومن الغرب إلى أفغانستان والأجزاء

الجنوبية الشرقية من إيران، ومن جهة الشرق إلى ولاية آسام حالياً، وتوسعت إلى المناطق الهند الوسطى والجنوبية، بلغت أوج مجدها في عهد الإمبراطور جاندرا كوبتا والإمبراطور أشوكا، كما تمكنت من إيقاف زحف الأسكندر المقدوني بعد أن جُرح في المعركة للمزيد انظر: حسين حسن العنزي و حميد مصطفى ناجي، إمبراطورية كوبتا Gupta...، ص ١٢٤٨.

(18) K.C.Chaudhuri, History of Ancient India …, P 234
(19) B.V.Rao, History of Asia from early time …, P 284.
(20) Robert Bracey, The Mint Cities of the Kushan Empire, at the Fernand Lopez Sanches (ed), the City and the Coin in the Ancient and Early Meadieval World, Oxford, 2012, P 117.
(21) Charles F.W.Higham, Encyclopedia of Ancient Asian Civilizations, New York, 2004, P 189.
(22) Xinru Liu, Ancient India and Ancient China Trade…,P 5.
(23) S.Natarajan, Political and Cultural History of India, Vol:1, Hyderabad, 1957, P P 100-101.

(٢٤) مانو سمرتي: كتاب يحتوي على تفاصيل وطقوس يجب مراعاتها في الأحتفالات والمناسبات الدينيية، بالإضافة إلى قواعد السلوك الأجتماعية والأخلاقية، وضع كتاب منو سمرتي من أجل تقوية نظام الطبقات الهندي (فارنا) في الهند والمحافظة عليه مع تكريس الموقع القيادي لطبقة البراهما في نظام الطوائف، لذلك فأن البراهميين يحلون هذا الكتاب المكان الأرفع ويولونه تقديساً خاصاً. للمزيد أنظر:

أحمد صالح غالب الفقيه، الميثولوجيا الشرقية، المؤسسة اليمنية للتنمية الثقافية، ٢٠١٦، ص ٧٥.

(25) Xinru Liu, Ancient India and Ancient China Trade…, P 5.
(26) B.V.Rao, History of Asia from early time …, P 284.; Hermann Kulke and Dietmar Rothermund, A history of India…,P 125.
(27) B.N.Luniya, Evolution of Indian Culture, Agra, 1994, P 179.; B.V.Rao, Histor y of Asia from early time …, P 284.
(28) V.D.Mahajan, Ancient India, Delhi…, P 427.

(٢٩) اللغة البراكريتية : من اللغات الهندو – آرية الوسطى، ترتبط باللغات السنسكريتية ولكنها تختلف وتتناقض معها في عدة طرق. عرفت من النقوش والأعمال الأدبية إذ استعملت على نطاق واسع لكتابة الكتب المقدسة من الديانة الجاينية ، كما دُون بها بعض الكتب المقدسة من الديانة البوذية. للمزيد أنظر: حسين حسن العنزي ، السمات والتأثيرات والخصائص في حضارتي وادي الرافدين ووادي السند...، ص ١٠.

(30) Ranabir Chakravarti, Relationships and Interactions in the economic sphere, at B.D.Chattopadhyaya (ed), History of Science, Philosophy and culture in India Civilization, Vol:2, Delhi, 2009, P 148.
(31) Xinru Liu, Ancient India and Ancient China Trade…,P 5; B.N.Luniya, Evolution of Indian Culture, …, P 182.
(32) K.C.Chaudhuri, History of Ancient India …, P P 223, 231.
(33) B.V.Rao, History of Asia from early time …, P 284.
(34) Ranabir Chakravarti, Relationships and Interactions in the economic …., P 148.
(35)K.C.Chaudhuri, History of Ancient India …, P 221.
(36) Ibid, P P 217, 227; V.D. Mahajan, Ancient India…, P 34.

(37) Xinru Liu, Ancient India and Ancient China Trade…,P 6.
(38) B.N.Luniya, Evolution of Indian Culture, …, P 181.; K.C.Chaudhuri, History of Ancient India …, P 237.
(39) Xinru Liu, Ancient India and Ancient China Trade…,P 6.
(40) Charles F.W.Higham, Encyclopedia of Ancient Asian Civilizations…,P 190.
(٤١) محمد اسماعيل الندوي ، الهند القديمة حضاراتها ودياناتها، مصر، ١٩٧٠، ص ١٩٨.
(42) B.N.Luniya, Evolution of Indian Culture, …, P 178.
(٤٣) هيلدا هوخام، تاريخ الصين منذ ما قبل التاريخ حتى القرن العشرين، ترجمة أشرف محمد كيلاني، القاهرة،٢٠٠٢، ص ٩٥-٩٦.
(44) S.Natarajan, Political and Cultural History of India …, P 105.
(45) V.D.Mahajan, Ancient India …,P 444.
(46) B.V.Rao, History of Asia from early time …, P 284.
(47) H.A.Davies, An Outline History of the World, Oxford, 1954, P 199.
(48) John F.Cady, South East Asia its historical development, Delhi, 2005, P 26.
(49) John F.Cady, South East Asia its historical …, P 25.
(50) Xinru Liu, Ancient India and Ancient China Trade…,P 8.
(51) P.R.Rao, History and Culture of Andhra Pradesh from the earliest time to the present day, Delhi, 1994, P 16.
(52)V.D.Mahajan, Ancient India …,P 448.
(53) John F.Cady, South East Asia its historical …, P 27.
(54) V.D.Mahajan, Ancient India …,P 443.
(55) B.N.Luniya, Evolution of Indian Culture …,P 179.
(56) John F.Cady, South East Asia its historical …, P 26.
(57) V.K.Agnihotri, Indian History, Delhi, 2009, P A 484.
(58) Xinru Liu, Ancient India and Ancient China Trade…,P 9.
(59) B.N.Luniya, Evolution of Indian Culture …,P 179.
(60)V.K.Agnihotri, Indian History …, P A 484.
(61) Ranabir Chakravarti, Relationships and Interactions in the economic …., P 148.
(62) John F.Cady, South East Asia its historical …, P 27.
(63) V.K.Agnihotri, Indian History …, P A 484.
(64) Xinru Liu, Ancient India and Ancient China Trade…,P 10.
(65) K.C.Chaudhuri, History of Ancient India …, P 222.
(٦٦) نقش ناسك: نقش كُتب في كهوف ناسك غربي الهند، من قبل أوشفاداتا Ushavadata نائب حاكم مملكة ساترابا الغربية ناهابانا. يبدو أنه اول نقش معروف في اللغة السنسكريتية، يرجع تاريخه إلى أوائل القرن الثاني الميلادي. يسجل النقش التبرعات التي قام بها حكام مملكة ساترابا الغربية إلى الأديرة والرهبان البهندوسية والبوذية، وقد كتبت باللغة السنسكريتية. للمزيد أنظر:
(67) K.C.Chaudhuri, History of Ancient India …, P P P 211-212, 227.
(٦٨) ستفهانا: (230 ق.م-٢٢٠م): سلالة هندية نشأت في جنوب الهند عاصمتها باثان (Paithan). غطت اغلب الأراضي الهندية الجنوبية وتميزت بإحلال السالم في البلاد ومقاومة الهجوم الأجنبي بعد تراجع إمبراطورية موريان، طبقت نظام الاقطاعية ولعبت دوراً حيوياً في التجارة مع شبه الجزيرة العربية، كما

عرفت برعايتها للديانة البوذية فضلاً عن نقل الأفكار والثقافة من والى سهل الجانج الهندي إلا أنها ضعفت بسبب الهجمات المتكررة من قبل سلالة ساترابا الغربية فانقسمت إلى دويلات صغيرة للمزيد انظر:

P.R.Rao, History and Culture of Andhra Pradesh from the earliest time…, P P 3-5.

(69) M.Venkateshwar Rao, History of Andhras up to 1323 A.D., Osmania University Press, 2007, P P 30-31.

(70) V.K.Agnihotri, Indian History …, P A 473.

(71) K.C.Chaudhuri, History of Ancient India …, P 218.

(72) B.N.Luniya, Evolution of Indian Culture …,P 183.

(73) V.D.Mahajan, Ancient India …,P 429.

(74) John F.Cady, South East Asia its historical …, P 27.

(75) B.V.Rao, History of Asia from early time …, P 284.; K.C.Chaudhuri, History of Ancient India …, P 222.

(76) Xinru Liu, Ancient India and Ancient China Trade…,P 11.